الأدب المصرى القديم
أو
أدب الفراعنـــة

تأليف حسن سليم

(جزءان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٥)

عندما نشر الأستاذ ارمان فى عام ١٩٢٤ مقاله عن بردية امنمؤوبى التى احتوت على حكم نقلها العبرانيون الى لغتهم وكانت الأصل الذى نقلوا منه أجزاء من كتاب سفر الأمثال لسليمان الحكيم ، تلفت العالم كله يسأل عن الأدب المصرى القديم ويسأل عما تركه من أثر فى آداب العالم ، وطلب الناس من علماء الآثار المصرية أن يحدثوهم عن هذا الأدب وعن حياة أصحابه . فأخذ العلماء يعيدون نشر ما سبق أن ترجمه غيرهم من ملفات البردى ويترجمون مالم يسبق نشره وأثبتوا للعالم أنه كان للمصريين القـــدماء أدب جامع ، لا يقل عن آداب الأمم الأخرى ، أدب لم يوضع لخدمة غرض دينى كما كان الأمر مع أكثر الأمم القديمة ، وانما كان أدبا مليئا بالجمال الفنى ، يتذوقه الخاصة ويتوق الى معرفته عامة الناس ، وهو قبل كل شىء أدب نشأ على ضفاف النيل استقى صـــفاءه ومعانيه من طبيعة مصر وطبيعة أهلها وعكس فى مرآته الكثير من صور حياتهم الخاصة .

ولو أردنا سرد تاريخ اعتناء علماء الآثار بالأدب القـــديم لوجب علينا أن نعود الى أوائل أيام حل رموز اللغة الهيروغليفية فى القرن الماضى ولكن يكفى أن نشير الى مجهود بعض العلماء الأفذاذ أمثـــال بروكش وماسبرو وجريفث ثم نقف طويلا أمام كتاب الأســـتاذ ارمان

فى الأدب المصرى القديم الذى ظهر بالألمانية عام ١٩٢٣ وظهرت ترجمته الانجليزية عام ١٩٢٧ . فقد قسم ارمان أدب المصريين الى فصول وعصور ووضع ترجمة صحيحة للنصوص المصرية وأصبح كتابه منذ ذلك العهد هو المرجع الأول لكل مشتغل بأدب قدماء المصريين . ولم يقف مجهود علماء الآثار عند ذلك بل ظهرت بعد كتاب ارمان عشرات المقالات وعدة كتب جليلة الشأن تحوى ترجمة بعض البرديات مثل بردية « شستر بيتى » وبرديه امنمؤوبى وكتاب برستد الذى سماه « فجر الضمير » . ولكن أمثال هذه الكتب والمقالات لا تصل اليها الا أيدى الباحثين ولذا أصبحت الحاجة ماسة الى اصدار كتاب جديد فى الأدب يحوى جميع ما استجد بعد نشر كتاب ارمان ولكن مرت السنوات ولم يصدر هذا الكتاب فى أى لغة من اللغات .

ومن الغريب أن مصر مهبط هذا الأدب ومصدر وحيه ظلت لا تعرف عنه شيئا اللهم الا بعض مقالات هنا أو هناك فيها محاولة لترجمة بعض القصص المصرية من احدى اللغات الأجنبية وكان أكثر الذين قاموا بهذا العمل من غير المتخصصين فى علم الآثار أو الذين لم تكن لديهم الثقافة الكاملة فى الموضوع فجاءت أعمالهم بعيدة عما يرجوه علماء الآثار وعما يرجوه المشتغلون بالأدب .

وأراد الأستاذ سليم حسن بك أن يسد هذا النقص فى المكتبة العربية فطبع كتابه فى الأدب المصرى القديم ، وليس الأستاذ سليم بك غريبا على الآثار المصرية فهو من أبر أبنائها وأحد أساتذة الجيل الجديد المشتغل بالآثار ويرجع عهده بدراستها الى خمسة وثلاثين عاما كما أن اهتمامه بموضوع الأدب يرجع بلاشك الى وقت بعيد وهو يقول فى مقدمة كتابه انه بدأ ترجمة كتاب ارمان فى عام ١٩٣١ ، ولهذا رحب جميع المشتغلين بالآثار وجميع من يهمهم الوقوف على آداب القدماء أو مظاهر حضارتهم بظهور هذا الكتاب .

ففى الجزء الأول مهد لكتابه بلمحة عن التاريخ المصرى ليسهل على

غير الأثريين فهم العصور المختلفة ، كما ألقى نظرة عامة على الأدب وكيفية نشأته والكتابة وتطورها والمغنون والقصصيون وأثرهم . وبدأ بعد ذلك بالقصص فترجم جميع ما نعرفه من القصص القديمة مقدما لكل منها بملخص وذاكرا بعد ذلك المصادر المختلفة لمن يريد التوسع فى دراستها كما اعتنى من آن لآخر بالتعليق على بعض النقط فى الهامش لشرح ما يصعب على غير المشتغلين بالآثار . ولو أردنا التعليق على القصص المصرى لاحتجنا الى صفحات ويكفى أن نقول أننا نلمس فى هذا القصص خيالا خصبا كما يلقى علينا دروسا ثمينة عن علاقة مصر بغيرها من أمم الشرق القديم مثل قصة سنوهيت وهربه من مصر الى فلسطين ، أو قصة الغريق التى يرى فيها أكثر العلماء الأصل الذى نقل عنه اليونان وظهر بعد ذلك فى كتابات العرب تحت اسم قصة السندباد البحرى ، أو قصة الاستيلاء على يافا أو قصة سياحة « ونأمون » الذى سافر من مصر لاحضار خشب الأرز من جبال لبنان فلم يلازمه التوفيق .

فاذا وصلنا الى باب الحكم والتأملات رأينا معينا لا ينضب من حكم قيمة تدلنا على المثل العليا التى كان يضعها قدماء المصريين أمام أعينهم ، ومن ذا الذى لا يقف معجبا أمام حكم « بتاح — حتب » التى يرجع تاريخها الى عام ٢٦٥٠ ق.م . تقريبا أو تعاليم « كاجمنى » أو نصائح « آنى » أو تعاليم « أمنمؤوبى » التى وضعها مؤلفا لتكون مرشدا فى الحياة العامة والسلوك . لقد اشتهر المصريون بالحكمة وافتخر اليونان بأنهم اقتبسوا من أبناء وادى النيل الحكمة والفلسفة . وليس هناك من شك فى أن المصريين القدماء هم أول من وضع المثل العليا للأخلاق ، ونحن اذ نقرأ هذه الحكم نرى فيها صدى حيا لما فى نفوسنا . ولا عجب فان أسس مكارم الأخلاق فى جميع الأزمنة والعصور واحدة وهى فى الوقت ذاته صورة لما فكر فيه حكماء عاشوا فى البيئة المصرية ، وقد تتغير

الشعوب وتزول الأمم ولكن البيئة باقية ولها الأثر الأكبر على حياة الأفراد .

وينتهى الجزء الأول من الكتاب باعطاء نماذج للرسائل التى كان يتداولها المصريون ومساجلة أدبية بين كاتبين يريد كل منهما أن يظهر تفوقه على الآخر فيحاول النيل من معلوماته . فأحدهما يعير صاحبه بأنه لا يستطيع تقدير وزن مسلة أو تمثال ضخم كما يعيره أيضا بأنه غير قادر على عمل حساب للمئونة اللازمة لحملة عسكرية ، ثم يضع له امتحانا دقيقا فى معرفة بلاد سوريا ولبنان وماهى الطرق الموصلة اليها لأنه كانت من مهام وظائف الكاتب أن يصطحب الجيوش الخارجة للحرب وعليه تموين الجنود وتوزيع ما يلزمهم من ملابس وأسلحة ومأكل فى أوقاتها .

وخصص المؤلف الجزء الثانى من الكتاب للدراما والشعر وفنونه ، وفيه نرى أن الدراما المصرية ظهرت فى عالم الوجود قبل الدراما اليونانية بما يقرب من ثلاثة آلاف سنة وأنها بلا شك وليدة البيئة المصرية وشبت ونمت من تربتها . فكانت للمصريين تمثيليات يقوم بها الكهنة فى بعض الأعياد الدينية وأهمها وأشهرها تمثيلية « حورس وست » التى يلبس فيها الكهنة ملابس الآلهة فيتحادثون ويمثلون وتظهر على المسرح فرق المغنيات والراقصات والموسيقيات لتزيد من بهجة الحفلات ، ونعلم من متون هذه الدراما وغيرها أن المتفرجين كانوا يشتركون مع الكورس فى غناء بعض الأناشيد . وفى ختام هذا الفصل عقد المؤلف موازنة بين الدراما المصرية والدراما اليونانية وأظهر ما بينهما من شبه أو اختلاف .

وفى باب الأغانى والأناشيد ترجم المؤلف بعض أجزاء من متون الأهرام وحلل معانيها ومراميها وأظهر للقارىء أهميتها كصورة للحياة الدينية والدنيوية التى عاشها المصريون فى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد . وثنى بعد ذلك بالأناشيد الدينية للآلهة المختلفة فى عهد الدولتين

الوسطى والحديثة فاذا وصل الى عهد اخناتون أعطانا صورة لهذه الحركة الدينية التى رمت الى التوحيد فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ثم عقد بين أنشودة اخناتون لاله أتون والمزمور ١٠٤ مقارنة لاثبات أن واضع المزمور نقل عن تلك الأنشودة .

يعتقد بعض الناس أن المصريين القدماء كانوا يعيشون لأجل آخرتهم فقط ولكن هذه التهمة هى آخر ما يمكن أن نصف به هؤلاء الناس فانهم منذ بدء حضارتهم الى أن دالت أيامهم لم ينسوا نصيبهم من الدنيا بل انهم بالغوا فى بعض الأحيان فى طريقة حصولهم على هذا النصيب كما نرى ذلك واضحا من حياتهم الخاصة التى صوروها على جدران مقابرهم أو ما نقرؤه مسطورا فى كتاباتهم ويكفى أن يقرأ الانسان ما خلفوه من شعر غزلى ليدرك هذه الحقيقة ، فقد خلف المصريون مجموعة غنية من شعر غزلى بين عذراء وحبيبها وهو شعر مملوء بالرقة والعذوبة وفيه يتفتح خيال الشاعر على أسمى ما فى الطبيعة من معان . فنرى الحب على صورته العفة الرقيقة وقد صقلتها حياة الحقل فيناجى الشاعر ما فيه من نبات ومن زهر وما يغرد على غصون أشجاره من طيور لأنه يرى فى نضرة الزهر وسعادة الطير ما يذكره بحبيبة قلبه .

ويأتى بعد فصل الشعر الغزلى فصل المدائح التى قيلت فى الملوك لتخليد أعمالهم وحروبهم ثم ينتهى الكتاب بفصل عن الشعر الدنيوى فيعطينا بعض أغانى العمال ثم أغانى الولائم وآخرها أغنيتان مسطرتان على جدران أحد قبور طيبة أولاهما تدعو الى طرح الهموم والاستمتاع بكل ما فى الحياة من جمال واسترضاء الحبيبة وسماع الموسيقى ووضع العطور وحمل الزهور لأن الحياة قصيرة وسيأتى اليوم الذى نصل فيه الى الآخرة التى يتردد الشاعر القديم فى الايمان بها فيقول عن أرض الموتى انه « لم يعد منها بعد » . ويلوح أن هذه الأغنية الداعية الى الشك فى البعث أفزعت المؤمنين به فوضعوا أغنية أخرى كتبوها فى القبر

نفسه للتقليل من شأن ملذات الحياة واعلاء شأن ما فى عالم الموتى من خلود وأمن ودعة .

والآن بعد أن استعرضنا أبواب الكتاب يجدر بنا أن نقف قليلا لايضاح بعض النقط :

أولا — لا شك أن المكتبة العربية — والمصرية بنوع خاص — كانت فى أشد الحاجة اليه ، وقد أسدى مؤلفه يدا مشكورة الى الأدباء والمؤرخين .

ثانيا — قد نجح المؤلف فى نقل النصوص الى العربية ، وسواء أكانت بعض أجزائه مترجمة من النص المصرى رأسا أو عن ترجمة لها نقلا عن ارمان أو برستد أو غيرهما فان الترجمة فى مجموعها لابأس بها ويمكن الاعتماد عليها .

ثالثا — ترجم المؤلف للمرة الأولى فى اللغة العربية بعض البرديات المصرية نخص منها بالذكر أوراق « شستر بيتى » وحكم « أمنمؤوبى » وبذل مجهودا كبيرا فى التعليق على النقط التى يصعب فهمها على غير المشتغلين بالآثار . وكنا نود أن يكون هذا التعليق والشرح على نطاق أوسع ليزداد الانتفاع من الكتاب .

والكتاب فى مجموعه مجهود مشكور ومرجع جديد للمشتغلين بعلم الآثار ولمن يريدون دراسة الأدب المصرى ، فلقد سبقت مصر أمم العالم فى اكتشاف الزراعة والكتابة والموسيقى والكثير من الصناعات ، وضربت بسهم وافر فى كل ما يختص بتقدم الجنس البشرى ، وتركت لنا أيضا تراثا أدبيا عظيما كان دائما موضع عناية علماء الغرب وأدبائه وموضع اعجابهم . ونحن اذ نجد اليوم بين أيدينا مؤلف الأستاذ سليم بك حسن فى هذه الصورة من الاتقان لا يسعنا الا تهنئة أستاذنا الفاضل على هذا المجهود .

أحمد فخرى